مشقر في البندقية

قصة قصيرة

بقلم **ميمونة المعلّم**

"الإنسان يتجاوز نفسه" هكذا يقول نيتشه ؛ أفكر وأنا أحدق في أطروحة الدكتوراة التي بين يدي، أضعها على الرف وأنا أفكر كيف يعقل أن ينفي المرء بعضه بهذه الطريقة القاسية. بقيت أحدق في الهاتف طوال فترة الظهيرة أنتظر اتصالا واحدا من أسرتي لكن أحدا لم يفعل. انتابتني موجة بكاء مريرة وأنا أسمع صوتا بداخلي يقول : "لقد اخترتِ حلمك ؛ لذا عليكِ أن تبتهجي وألا تلتفتي للوراء أبداً فمن غير المنطقي أن تنتظري من الأشواك والزجاج المتناثر في طريقك تهنئة بمناسبة وصولك".

حاولتُ تخفيف حزني ومواساة نفسي بأن للحرية ثمنها وأن علي ألا أحزن. وقفت واتجهت صوب المرآة وحدقت طويلا؛ عيناي المتورمتان من شدة البكاء، أنفي المحمر وخداي المبللان، لازالت آثار اليمن جلية علي، رغم أنني غبت لخمسة أعوام إلا أن الحزن اليمني يتجلى في انحناءة فمي وتعاقد حاجبيّ وذبول جفني كل ليلة. بعض الانتماءات لا مفر منها، لكن أنا أفر.

ارتديتُ قبعتي الشتوية وجاكيتي الجلدي والقفازين ثم أغلقت الشقة ورحت أنزل السلالم راكضة. في طريقي قابلت جارتي فيرونا التي حيتني مبتهجة بي وقبلتني وهي تطالبني بالعودة باكرا لأنها ستعد الليلة وليمة إحتفاءا بي.

أمسكت بيديّ : أرى أنك لم تتخلصي من ماضيك التعيس بعد، اسمعي يا عزيزتي ،أنت حمامة الآن فإما أن تستمتعي بحياتك وتحلقي في الفضاء وتنطلقي لاكتشاف الكون، أو أن تغلبك عادة السجن وتعودي في نهاية المطاف للسجان، قالت هكذا وابتسمت فابتسمت لها وقد فضحتني دمعتان أمامها وقلت:

الروح المتمردة لا تغلبها العادة، وإذا اعتلت السماء يستحيل أن تطأ الأرض مجددا. قلت هذا وأنا ألوح لها مغادرة.

دلفت للخارج. لامست نسماتُ الربيع وجنتي الدافئة من الحزن، توقفت لبضع دقائق أستمع لعازف الكمان الذي يتكئ على جدار محل الزهور أسفل البناية التي نقطن فيها، وابتسمت هامسة لنفسي: بينما بعض البلدان لا تعرف إلا حديث السوط، بلدان أخرى تعرف ماهو أكثر من السحرِ والجمال، تعرف الفن والحب.

"صحيح أننا لا نملك المشاقر التي تتغنين بها طوال العام، لكن لدينا زهورا جميلة وهي تأتي من البرية أيضا، خففي تعنتك هذا وتواضعي لها قليلا" صاحت بي ماريا وهي بائعة الزهور في المحل، "لن تغفر لك الطبيعة هذا الرأي المتصلب" قالت هذه وهي تدق على رأسي كما لو أنها تطرق بابا، بقوة مصطنعة وضحكت. آه يا ماريا، لا يمكنك أن تلوميني، أنت لم تري مشقرا يوما، ولم تداعب منخارك الكبير هذا رائحته، ولو أنها فعلت لأقفلت محلك هذا وصعدت في أول طائرة إلى تعز!

قهقهت ماريا عقب تعليقي على منخارها وراحت تحكه بفكاهة وهي تقول: لا أظنني بحاجة لفعل ذلك، يكفينا مشقر واحد في البندقية!

لكم أحببت توصيفها لي بالمشقر، منحني هذا طاقة عجيبة شعرت بها تسري في داخلي كالتيار، امتلأت بها فأشرق وجهي مرة واحدة. أمسكت يديها بامتنان وقبلتها في وجنتها: شكرا ماريا، لكم أسعدني توصيفك المحب هذا، والآن أفرجي عني لدي موعد مهم جدا، سنتحدث حول المشاقر لاحقا، سنتحدث كثيرا أعدك!

حسنا لا تتأخري، ننتظرك جميعا على العشاء، فيرونا متحمسة لأجلك كبقيتنا، سأقتلك إن تأخرت!

ضحكت وأنا أتملص من تهديدها المخيف كعادته وسارعت الخطى نحو الشارع الثاني. قطعت الرصيف نحو البحيرة، مررت من جسر البندول متجهة نحو سان ماركو. نظرت صدفة للمياه فرأيت انعكاسي فيها، لاحظت مدى تغير حالي بعد أن كنت تعيسة في اليمن، فأيقنت أن الجمال منوط بالمحيط الخارجي، لم أكن بهذا

البهاء يوم كنت في الأرضِ "السعيدة"بلادي التي تشبه معظم نسائها، حزينة ومظلومة طوال الوقت، لكنها مع ذلك، في كل مرة تتّقدُ لتتمرد.

فكرتُ في القضية التي كلفت بمتابعتها البارحة، امرأة تدافع عن نفسها فتردي زوجها قتيلا وتدخل السجن. قاتلة! هكذا ينظر لها المجتمع اليمني، لا أحد يلقي بالا لبقائها تحت وطأة التعذيب النفسي والجسدي لأعوام، لا أحد يلقي بالا لحرمانه لها من طفلها، ولتحملها في صمت كل هذه الفترة، الجميع ينظر لذلك بلامبالاة فهم يدرجون ما يحدث تحت مصطلح "القوامة" بيد أن القوامة بعيدة كل البعد عما يحدث، هذا المصطلح ومفاهيم مغلوطة أخرى وقعت ضحيتها العديد من النساء وتشكلت لديهن عقد تجاهها، بيد أن "الفضل" يعود لهيمنة السلطة الذكورية على فروع علوم كثيرة من ضمنها التفسير.

لوهلة، مر شريط حياتي في الوطن أمام عيني. والدي وهو يتشاجر مع أخي بخصوص دراستي إذ قام الأخير بتمزيق كافة كتبي ودفاتري بحجة أن الثانوية تعلم البنات "الصياعة" وأن تعليم الإناث لا يدر إلا "الفضائح". يوم زواجي ونظرة الرضا والسعادة في عين أخي كما لو أنه شيطانٌ يحشر الأرواح لجهنم. مشاكلي مع زوجي التي كانت تَضرم في المنزل الجحيم بأتفه الأسباب، طلاقه الأول لي. حرمانه إياي من أخذي لطفلي الرضيع معي. حنقاتي المتكررة. إرجاع أخي لي دون أخذ اعتبار لكرامتي، صفعه لي أمام طليقي يؤدبني ويتباهى برجولته. كل هذا دون أن أحظى بفرصة الاعتراض، ففي المجتمعات الذكورية الرجل إله بشري يحق له في أية لحظة وضع روح امرأته على المحك، أو حتى إراقتها ولن يعترض المجتمع البتة؛ لذا فأنا أعي موقف المسكينة جيدا، أقصد المرأة التي أملك ملفها، لأنني امرأة يمنية، لأنني أم، ولأنني ضحية زواج فاشل.

حزنت جدا لأجلها أنا أيضا لو كنت مكانها كنت تصرفت بالطريقة ذاتها. أشعر بالامتنان البالغ لعمتي التي ساعدتني على مغادرة البلاد، لا أتخيل ما كانت لتكون حياتي عليه لو أنني استمررت هناك بعد آخر مرة، لهذا أشعر بالتعاطف والفهم لموقف هذه

السيدة. في النهاية حين لا يجد المرء من ينصره ويدافع عنه، وعندما يصبح النظام هو ذاته العدو تغدو فكرة أخذك لحقك بيدك هي المنطق الوحيد. حين لا تقف الأسرة التي عوضاً عن مساندتها تطالبها بالصبر من أجل طفلها في صف هذه المرأة، من الطبيعي أن تدافع تلك المسكينة عن نفسها وعن طفلها وتضع حدّاً لمعاناتها. لا ألوم تلك المرأة عما فعلته، ذلك أنني كثيرا ما أصل إلى خلاصة أن إنهاء حياة شخص عديم الإنسانية هو فعل إنساني يجدر تكريمه لا معاقبته، لأنه ضمان لاستمرارية حقوق الآخرين، وهذا ما تمارسه الدول والجماعات على نطاقها الواسع لكنها لا تصفه بهذا الوضوح وتستنكره حين يكون فعلا فرديا. لكنني أوقن بأن هذا ليس بالأمر الصائب إلى الحد الكبير لأن تبعات ذلك وتكراره سيؤدي إلى سقوط المجتمع، بالتالي فإن على النظام الجمعي الذي يحرك المجتمع أن يصحح نفسه قبل أن يصرخ الأفراد في وجهه ويسقطوه.

أصل للساحة وأتّجه ناحية سان ماركو، أتأمل الحمام والناس، أشرد وأنا أحدق بكل ماهو حولي كما لو أنني هنا للمرة الأولى. يستوقفني طفل صغير ويقول لي بلكنة غريبة: سيدتي، أولا هاتفك يرن منذ ثلاث دقائق ولم تنتبهي، ثانيا، أناديك منذ وقت، لقد دستِ منديلي، وبهذا أنت مدينة لي باثنين يورو، أعتذر منه، أنزل لالتقاط منديله، أعطيه عملة معدنية، وأدس كليهما في جيبه، أبتسم له وأجيب على الهاتف وأنا أمشي. أبهذه السرعة اشتقت لي ياماريا!!!

تجيبني: كلا، لقد أحزنني الحنين في عينيك كما أن فيرونا مرت بي قبل أن تذهب لشراء حاجيات العشاء، وحدثتني عن ملاحظتها البريق نفسه في عينيك!

أنتما تتخيلان، لايوجد شيء من هذا القبيل، إنها القضية التي أعمل عليها فحسب.

لا لا، قد تتمكني من خداع الجميع لكن ليس أنا أو فيرونا، لدي فكرة، لماذا لا ترتبي لزيارة خاطفة إلى بلدتك، أعرف أنك تكرهين العيش هناك، لكن زيارة سريعة لن تضرك، أعتقد أنها فكرة سديدة ستخفف عنك كثيرا، هاه ما رأيك؟

كلا، كلا صدقيني أنا مرتاحة هنا يا ماريا، ولا يوجد شيء مما تدعيه فيرونا، والآن مارأيك أن تهدأي ولو لساعة واحدة لقد قاطعت تأملي، سنستأنف أحاديثك الكثيرة لاحقا، آديو (وداعا)!

العودة لليمن؟! ولو ليوم واحد! مستحيل !

ما يدهشني هنا هو الحرية، يمكنني أن أمشي هنا براحتي، لن يحدق بي أحد، لا أحد يتعرض لي، بل لا أحد يلاحظ وجودي وهذا هو أكثر الأمور إزعاجا في أن تكون فردا من مجتمع فضولي مهووس بالتفاصيل، أنك حيثما ذهبت تشعر بأنك مراقب وبأنك ملزم بالقيام بأفعال محددة وتجنب أخرى، لديك بروتوكول عليك اتباعه. هذه خطيئة المجتمعات المتزمتة، لا يمكنك أن تكون، أما هنا فأنت ما شئت، لأنك غير مرئي أصلا، تكمن قيمتك في أن أحدا لا يقحم أنفه في شؤونك، في أن أحدا لايراك أو ينصب نفسه وليا عليك، عدا ماريا بالطبع، أحيانا أظن بأنها قد تكون قريبتي بطريقة ما هههههه.

أواصل السير شرقا حتى كنيسة القسيس مرقس، أتأمل ديكورها المميز ورسوماتها الرومانية المبهِرة بذات الدهشة التي عشتها قبل أعوام يوم جئت للمرة الأولى، أدخل الكنيسة وأنا أحاول أن أعدل من هيأتي ليتمكن المجهول صاحب الرسالة الغامضة من رؤيتي. تدهشني روحانية المكان، أجلس في ذهول وسكينة مطلقين. الديانات مهما اختلفت تحتفظ بالروحانية ذاتها، هذه الروحانية تكمن في مدى عناية الأشخاصِ بدينهم ورموزه، أسمع صوتا يناديني فأرفع رأسي لا أكاد ألمحه حتى أراه يدخل من الباب خلف الستار الأحمر، أنظر حولي، لا أحد يهتم، ينظر لي شاب أصهب، أبتسم له، يوجه عدسته نحوي، يلتقط لي صورة أبتسم فيها بقلق، ألوح له مودعة وأركض لألحق المجهول، أدخل لمكان فيه الكثير من الكتب والأشياء الغير مرتبة ، قناديل، أوراق، شموع، صينيات مختلفة، أسمع صوت طرق في الرف الأمامي ، أقف في بقعتي ، يزاح الرف جانبا، ليظهر نفق مظلم بآخره نور أحمر، أمسِك حرف الـ T المعلقِ على رقبتي، أدلف للنفق وأمشي بخطوات متوترة خائفة، أصل إلى قاعة مضاءة بقناديل حمراء، في منتصفها طاولة عليها سكين وسلسلة، أسمع صوت

همس لا أتبينه، يتعالى الصوت، يصبح شيئا يشبه التلاوة، يظهر من أعلى القاعة بشكل نصف دائرة أشخاص يرتدون قلنسوات حمر، يدخلون من أعلى ويقفون ليقوموا بتلاوةِ شيءٍ ما، شعرت بضربة في رأسي، عندما استفقت وجدتني مكبلة على الطاولة، التلاوة مستمرة، يمكنني فك شيفرتها الان، هذه لغة رومانية قديمة، سيتقربون بروحي لله، لأنها روح شيطانية، توجه السكينة إلى عنقي ،لا صوت لي ،لا يمكنني الصراخ حتى أستفيق، لا أعرف أين أنا، آخذ وقتا لأدرك المكان الذي أنا فيه، يا إلهي هل هذا سجن!

تتجه نحوي امرأة ضخمة، صهباء، شعرها يخرج من تحت حجابها، لونه أحمر، تهزني بقوة استفيقي يا صفية..

لكن اسمي ليس صفية!!! مهلا هذا اسم المرأة في الملف! يا إلهي مالذي يحدث!

-يبدو أنك نسيت نفسك، تظنين أنك في منزل أبيك، استيقظي أيتها القاتلة! لديك الكثير لتقومي به، والأكثر لتواجهيه، قبل أن يحكم عليك القاضي" إن شاء الله بالإعدام، مثلك ماتستاهلش تعيش"، تصرخ بي بصوت عال، وأنا عاجزة عن الحراك، أحاول أن أستفيق، أن أبرئ نفسي، اسمي، هويتي، دون جدوى، أشعر بالاختناق، لايمكنني الشعور بأطرافي، ترفع يدها لتصفعني ... أستفيق ... يا إلهي كان كابوسا، أنا في غرفتي، الساعة السادسة مساء، تأخرت!! فيرونا تنتظرني!

بين مدينتين

ها هو ذا يعود ادراجه أخيرا، انه يوم العودة للوطن. لم تكن غربة السبع سنوات سهلة عليه، ولم تكن كذلك سهلة على اهله واحباؤه. عاد وهو يعلم ما بانتظاره فقد وصل للسن المرجو ولم يعد هناك وقت للتأجيل أكثر.

تزوج والدي من والدتي وانتقلا للعيش في مدينة صغيرة تنقل فيها والدي بين وظائف عده. لم يكن المسار مهماً، بل احتياجات عائلته هي الأهم. ترعرع هناك اخوتي الثلاثة وكان لهم فيها نصيب وافر من الذكريات، اما انا فلم أكن قد أكملت الشهر الواحد من عمري حين حظي والدي بفرصة زيارته لصنعاء.

عشت في مدينة صنعاء عشرين عاما. سمعت كثيرا عن سحرها وجمالها ممن لم يستطيعوا زيارتها. احببتها لكن لم اخالط سكانها كثيرا فكل الذين عرفتهم كانوا من مسقط رأسي ولعل ذلك هو سبب عدم اتقاني كثيرا للهجة الصنعانية. لم ابه قط لإدخال الكثير منهم الى حياتي وكذلك لم يكن لدي منهم كثير من الأصدقاء في المدرسة. لم أعطهم فرصة لمصادقتي لما وجدته من عدوانية لديهم. إذ ذات مرّة وبينما كنت جالسة لوحدي على كومة من الطين، اقتربت مني احدى الفتيات في المدرسة المتوسطة فرحبت بها ببرود. جلست بجواري ثم سألتني ان كنت مجنونة ولماذا أحب الجلوس لوحدي وانه لا يفعل ذلك سوى المجانين! من يقول هذا لشخص بحق الجحيم؟ مسكينة

هي. لا تعلم ان ما ابقاني على قيد الحياة هو انني كنت اجيد التحدث مع نفسي. وعندما كبرت تعلمت ان افعل ذلك بصوت منخفض لا أكثر. ارجو انها أدركت معنى ذلك بعدما كبُرت. وبذلك اكتفيت بنفسي وبالقليل من الأصدقاء الحقيقيين.

في صنعاء لطالما اعتدت التسوق مع والدتي، كنت استمتع بالجري وراها محملة بالكثير من الاكياس، اصغي الى مساوماتها مع البائعين وكيف تقوم بتخفيض السعر للنصف أحياناً. وإن لم يعجبها العرض لا تتردد في التراجع الى الوراء واثقة الخطى تمشى فلا تمر ثلاثة ثوانٍ حتى يعاود البائع مناداتها وقد أعطاها السعر الذي ترجوه فتعود وابتسامة النصر تعلو وجهها ثم يقول البائع حفاظا على ماء وجهه:

("ما بلا عشان أكون اكسبك زبونة ولا احنا ما نبيعش بالسعر هذا") بابتسامة تجبر الخاطر تجعلني اشعر بالذنب اما هي فكما يقال (يا جبل ما يهزك ريح).

خلال فترة استقراري بمدينة صنعاء كان والدي كثير السفر ما بين أوروبا واسيا. كان يحب التصوير والسياحة، يشتري الات التصوير ويوثق كل لحظاته برفقتنا وبرفقة اصدقاءه في العمل. اعتدت ان تكون ملابسي واحذيتي وألعابي من دول مختلفة... أحببت ذلك التنوع وكنت اتفاخر ما ان سألني أحدهم عن أماكن شرائها. أحببت كيف يعيش والدي حياته متنقلا بين دولة وأخرى يوثق اللحظات ويعيش التجارب.

كنت أرغب برؤية نفسي تماما كأبي. اندمج سريعا واسافر كثيراً. لم احبب الرقص او الذهاب الى الاعراس كالفتيات الاخريات فقد كانت اهتماماتي مختلفة كثيرا عدا شيئاً واحدا ألا وهو فقرات التسوق تلك. كبرت عليها واحببتها حتى اعتدت ان اسبق اخواتي في الطلب من امي ان تأخذني معها. أبقى صامتة لا اطلب شيئا ولا أزعجها كي تعاود اخذي مرة أخرى. واعتقد ان خطتي قد نجحت فهي لم ترفض

طلبي للتسوق معها كل مرّة كنت حينها اشاهد الناس واراقب تصرفاتهم بحذر، واسترق النظر لرؤيه أزياءهم فأجدها متنوعة. لا بدّ أن هذا التنوع يعود الى مدينة صنعاء التي تجمع الناس من كافة مدن ومحافظات اليمن لكونها العاصمة.

كان لوالدتي ماكينة ورثتها عن جدتي ولم تكن تسمح لاحد ان يلمسها. لكن بفضل ولعي بالخياطة والازياء وما اجده على متصفحات الانترنت، استطعت ان أكمل خياطة فستان لأختي البالغة سنة وابهرها به خلال اسبوع في فترة قيلولتها ودون ان يلاحظني أحد. حظيت بعدها بثلاث ماكينات وأصبحت اتقن مهنة الخياطة في غضون بعض سنوات. حتى صارت أحب الهوايات الى قلبي. وددت دراستها لكن لم يسعني الحصول على قبول جامعي لدراسة تصميم الأزياء وباءت كل محاولاتي بالفشل. عدت مره أخرى أتذكر فترة شباب والدي وكثرة سفراته وارى حلمي بالاغتراب يحلّق عاليا وتتحقق الاحلام ورغبات الحرية.

يقال بأننا لا ندرك قيمة الشيء حتى نفقده، ها قد اتى اليوم الموعود أودع فيه مدينتي التي لم أدرك قيمتها بعد لأعود مره اخرى واستقر في مسقط رأسي الذي لم احظ بفرصة صنع ذكريات فيها وها هي الفرصة تأتي إلي، لم أكن يوما قد تخيلت باني سأستقر في حضرموت تحديدا في المكلا فأنا لم احبب جوها قط خلال زياراتنا الصيفية.

مدينة المكلا مدينة صغيرة يقسمها الشارع الرئيسي الى واجهتين أحدهما جبلية والأخرى بحرية لتُكون طريق المرور ذهابا وإيابا، ولذلك لم يكن التنقل فيها صعبا فقد حفظتها عن ظهر قلب في غضون يومين. هي أيضا مدينة ساحرة عريقة وتاريخها يؤكد على ذلك، لكن الجو شديد الحرارة والرطوبة العالية تجعل جسدي كالحلزون أو كأن أحدهم قد صب العسل علي. احاول ان اخفف الحرارة بإشغال المروحة لكنها

تباغتني بنفث الهواء الحار على وجهي. حمدا لله ان لدي قدرة تأقلم عالية وصبرا يجعلني اتحمل شهور الدراسة واجيد تمرير الوقت بالفائدة، فما ان تأتي الاجازة حتى اردد قول الأديب عبد العزيز المقالح: **يوما تغني في منافينا القدر لابد من صنعاء وان طال السفر.** وأفر مسافرة نحو صنعاء، اظلل ارددها حتى أصل... اجدها تهون طول الطريق وتداوي مأساته. فالطريق لم تعد ذاتها تلك عندما كنا نصل في غضون ساعات قليلة باتت تصل الى أربعة أيام، ثلاثة، او اثنين لماذا؟ كله حسبما نقول يعتمد على حظك واجدها بكل مره اعاني ويلات السفر كأنها تقول لي: ماذا نفعل فهذا هو حظك السيء يا عزيزتي! لم يكن يغضبني الامر ما دمت أصل على قيد الحياة اجدني محظوظة جدا فالكثير لم يستطع ان يصل او وصل شبه ميت. لم اخض كل تلك رحلات السفر ذهابا وإيابا لوحدي، بل كانت اختي ترافقني فقد انتقلنا سويا ودخلنا نفس الجامعة سويا كما اعتدنا منذ الصغر. وهي إحدى وصايا والدتي أن نكون معاً دائما كي تعتني الواحدة بالأخرى، ولن أخون وصيتها مهما بلغني الدهر.

أثّر انتقالي كثيرا على نظرتي لصنعاء وجدت نفسي في البداية اضع فروقا ما بينها وبين مدينة المكلا وبين سكانيهما. أفكر كثيرا واستدرك كامل المواقف التي تحصل فما البث حتى اعود للمقارنة مره أخرى. أرهقني الامر كثيرا فسكان المكلا هادئون على نحو مزعج وكأن ضجيج أفكارهم يلاحقني أجد فيهم نوعا من التفاخر ذاك الذي يمنعك عن التقدم فهُم في ازيائهم متشابهون يلبسون كل ما هو رائج غير مهتمين لما يرغب جسدهم فعلا بارتدائه حتى وان كانت غير مريحة.

ليست الأزياء فحسب، بل معايير الجمال حمدا لله انني أيقن بالفعل منذ ان كنت صغيرة بخروجي عن معاييرهم فلم اعد أُقارن. لا اعلم ان كانوا يعلمون ذلك ام يتغاضون، ولكنهم أيضا

متشابهون في أفكارهم. ألا يمكن للإنسان ان يختلف على الأقل بطريقة التفكير! فتجد غالبيتهم لا يتدخلون في أي امر كان ثم يرددون جملة: **مالا سيبي!** اي لا دخل لي. ولكن لهذا النوع من التفاخر بعض الفائدة. غرور الرجال لا يسمح لهم بمغازلة النساء امام الاخرين على الملأ. لا أقصد القول إنهم ملائكة وانما كما يقال (من وراء لوراء). اعجبني ذلك فلم يضايقني أحد كما اعتدت على التحرش الجسدي واللفظي بشكل يومي من رجال صنعاء بعبارات بذيئة ومقولات لا اعلم مقصدها أحياناً مثل (يارب زوجني). يقولونها والقات يملأ افواههم متكئين على الأبواب ومرميين في الشوارع انظر إليهم وأقول في نفسي من بالله سترضى بشخص يجلس هكذا كالغنمة ويضيع أمواله في مضغ القات! في الواقع هم أيضا لهم عائلات، ولكن القات أولى من الجلوس معها بالنسبة لهم. فكان لذلك الغرور عند رجال المكلا فائدة فقط ينظرون لك بأعين تخترق كل ما ترتدينه. وليكن، فلينظروا اولئك الحمقى بعيونهم ذات الاشعة فوق البنفسجية.

هنالك الكثير مما احببته في المكلا وركوب الحافلات الكبيرة كان أحدها، أجد فيه الناس البسيطة حيث تتكرر معي الكثير من المواقف والكثير من الحكايات منها ما أنصت للاستماع لها ومنها ما اعيشها بنفسي فذات مره هندمت ثيابي وخرجت بأبهى حلتي لكن كل ذلك لم يستمر فقد جلست بجواري امرأة تفوح منها رائحة الحناء، لم تعجبني تلك الرائحة قط، ولكن بعد ان اختلطت برائحة العرق وعصير ابنتها الذي انكب على ردائي بدت لي أسوأ من ذلك بكثير، رغبت بالتقيؤ، اردت وتمنيت بشدة رائحة الحناء صافية!

ومع ذلك لم أكرهها ليست كل المواقف سلبية فهنالك الحلوة والمرة. أحيانا أكون محظوظة لسماع قصة اتعظ بها أو نصيحة قيلت عبر مكالمة هاتف. وكل من في الحافلة قد استمع لها.

مره أخرى ركبت الحافلات تلك ففوجئت بارتفاع سعرها بين ليلة وضحاها. فدخلت في مشادات مع السائق ورفضت دفع مبلغ أكبر لكن وبينما اتناقش معه تدخلت امرأة وليت انها لم تتكلم فقالت: ("كلنا قد دفعنا وانتي حق واه ما بتدفعين كمانا")، صدمت كثيرا فها هم يشتكون ارتفاع الأسعار وتدهور العملة ثم يخضعون عند مواجهة من هو مسؤول عليها. ما امر هذا الشعب! ألذلك علاقة بجملة **ما سيبي**! قاطع تفكيري رجل وهو يناول السائق مبلغا بغرض الدفع عني! مهلا ماذا يفعل! ألم يعلم بمحاولاتي في ارجاع الأمور الى نصابها؟؟

ومع ذلك لازلت أحب تلك الحافلات. فهي تعرفني بسكان هذه المدينة. وتعلمني كيف اتعامل معهم. بسطاء هم لكنهم يحاولون تقمص شخصيات لا تناسبهم بين الحين والأخر ولذلك كنت استعد بعدسة كاميرتي دائما كي أوثق بساطتهم وعفويتهم. استمريت بالالتقاط دون ان اضع حدا لتفكيري فيما إذا كان ما افعله تعديا على مساحتهم الشخصية وحريتهم ام لا ولذلك كنت احرص دائما على ان تكون جميع الصور جميلة فما ان يقرر أحدهم مقاضاتي أقف امام القاضي بفخر لجمال ما التقطت. كما قال لي أحد أصدقائي المصورين. أقنعني كثيرا فأتبعتُ مبدئة.

أحببت بحر المكلا في الصباح الباكر تنعكس عليه اشعة الشمس ووقت الظهيرة يزداد لونه زرقة لانعكاس السماء الصافية عليه، امواجه شديدة الهيجان وماءه صاف بارد يخفف حرارة الجو ما ان تضع قدمك عليه حتى تعود كل الأمور لصوابها، وكل ما ضاقت بي الدنيا نظرت نحوه متبعة نصيحة والدي فأجدني امتلأت بالحياة مجددا وهو أفضل ثروات بلادي احبه ويحبني ولا أجد في عدسة كاميرتي صورا أفضل منه. ازورة كثيرا في الصباح قبيل شروق الشمس مع رفيقاتي من المسكن فهذا ما نفعله عادة عند نهاية كل أسبوع. أصبحت ممتنة لوجودهم فلم اعتد ذلك في صنعاء لكن الاغتراب

يجبرك على ان تبحث بلهفة عن أرواح تماثلك، فوجدتنا جميعا من مدن مختلفة، لكل منا قصته وحياته، نحب التجارب، والسفر، والمشي طويلا. لكن اول ما جمعنا هو الاكل كنا جميعا نبحث عما يذكرنا بالمنزل ولا شيء اشبه بوجبات الام عندما تصنع بحب. نجرّب كل وجبة ونقيّمها وفقا لذلك فاذا ما ارتقت لنا كانت بمثابة وجبة الام، "الوجبة المصنوعة بحب".

خلال فترة مكوثي في المكلا أحببت الشاهي أكثر عن ذي قبل. فهو أحد الطقوس المقدسة بعد الغداء في كل منزل حضرمي تتجمع العائلة لشرب الشاهي مع ما يعرف بالحنظل. في المقاهي يلعب كبار السن الضمنة وهي أحد الألعاب التقليدية ويشربون الشاهي معها. الشاهي هو فقرة ترابط الاسرة ولقاء الأصدقاء. احبه لما يصنعه في الناس وليس فقط لكونه حلو المذاق. لكن أكثر ما اثار استيائي هو عدم قدرتي على صنع الشاهي بطريقتي في المسكن فليس من المسموح لنا ان نستعمل المطبخ نظرا لوجود عاملات ولم يسمح لنا بإحضار غلاية كهربائية فهي من الممنوعات ومن يكشف بفعلته فقد يطرد! لم اقتنع بالأسباب كي امشي وفق القواعد.

لم أستطع منع نفسي من السفر تجوالا في المدن والقرى القريبة من المكلا. فما ان أحظى بفرصة الترحال حتى ليوم واحد اجهّز الضروريات فقط واحرص على عدم اخذ الكثير من المتاع لئلا يكون عائقا لي عند التنقل في السفر. وأفر بسعادة نحو تجربة جديدة. أحاول أن اتعرف على العادات والتقاليد. المناطق واللهجات. ادون كل شيء وأوثق بالصور. لا أنكر انني ومع كل مره اسافر فيها أجد المصاعب في الطريق. تنتهي بشتمي للسائق دائما. ثم ابرر الامر بكونه قضاء وقدر. لكن ليس قبل ان اشتم السائق فهكذا جرت العادة...

لم تكن فقرات التسوق في المكلا هي ذاتها التي اعتدت عليها في صنعاء فعندما ارافق خالتي بين فترة وأخرى للتسوق. ينتابني حالة من الاشتياق لمبايعات والدتي وكرم البائعين في صنعاء فأجدها تساوم بذات الطريقة التي تساوم بها والدتي وأفكر لابد من ان الامر متوارث في العائلة. لكن لما لم أورثه عنهم! ومع ذلك فان مساوماتها لا تجدي نفعاً مع بائعي المكلا فهم يتشبثون باسعارهم فتبقى البضاعة لهم فضلا عن بيعها بإنقاص بضع ريالات فقط. غريب امرهم. لا أجد في الامر حاجة للجدال فالخسارة من نصيبهم في نهاية الامر.

هأنذا اعود لصنعاء بعد طول غياب، اجابه ويلات السفر ثم اتناساها كما قال لي صديق ذات مره بأنني لا أنسى وانما اتناسى كي احتفظ ببقايا عقلي. عدت وقد اشتقت لنسيم هوائها العليل، أسواقها، ضجيج شوارعها وسكانها وهدوئي الداخلي الذي يوقف كل ضجيج. لكن لا تمر فترة بسيطة حتى اعاود التفكير في المكلا. وبضجيج افكاري. وبشعبها وهدوئهم الغريب أحاول تقمص شخصياتهم. لماذا يتصرفون كذلك! لو كنت بمكانهم لا اتنقل بين المدن كيف سأعيش! كنت سأرغب بالهدوء، بالصمت، بألا أرهق نفسي بالسياسة او الاقتصاد، بألا يزعج افكاري شيء، ان تمر المواقف من امامي ولا اتدخل فيها لأجل نفسي. هل هذا هو سحر جملة "ما سيبي " يا ترى؟

اظن بأنني بدأت افهمهم. بدأت أجد نفسي اشبههم. ينتابني شعور بعدم التدخل بأن أخبر نفسي بأنها أولى من أي هموم أخرى وأنه يجب ان ابقيها على قيد الحياة تتنعم بنعم الحياة وتهرب من مساوئها. ولكن ما ان فعلت ذلك كالجميع هل نبقى على حالنا! أخاف ان يلومنا الجيل القادم كما ألوم انا الجيل السابق. اغضب على نفسي لتفكيري بذلك لكن سرعان ما اجدني اسامحها فمن أقرب لها مني. اتذكر حديثي في أحد المرات مع امرأة في منتصف

الخمسينيات عندما تطرقنا لزمانهم فأخبرتني بانها وكل من ينتمي لجيلها يتمنون بشدة لأبنائهم ان يعود الزمن الذي عاشوا فيه شبابهم ليعيشوا فيه. فقد كانت البلاد تتنعم بالأمان وكانت الفرص متواجدة لمن يريدها اما الان فكل شيء بات مختلفا على نحو سيء. ربما هذا هو الحال بالنسبة لهم. لكن لا يعني ان يكون كذلك بالنسبة لنا..

ملاحظات:

ما بلا: ليس الا

يا جبل ما يهزك ريح: مقولة شائعة تذكر للتعبير عن استصغار النوائب والثبات في مواجهاتها كالجبل الذي يقف شامخا في وجه الرياح.

وانتي حق واه ما بتدفعين كمانا: لماذا لن تدفعي مثل ما دفعنا

ما سيبي: لا دخل لي بذلك

حرب الوجود

قصة قصيرة

بقلم **تسنيم المروني**

شخص لا ينسى، بطل خارق لا يغلبه الموت، هذا ما أردت أن أكونه في لحظة تمني طفولية، ولعجائب القدر تحققت هذه الأحلام الغبية بعدما تمزقت حنجرتي، و تناثرت دمائي، وراودني الموت حتى هممت أن استجيب له. ثم حصلت على الأمنيات السخيفة التي لم أكن قد فكرت بها حقاً، لم ينسى أحد قط موسى الأعجم، ليس لأنه أعجم فحسب بل لأنه عاد من الموت، جز عنقه ومع ذلك لم يمت، بعضهم يجزم بأني قد مت وسُكن جسدي بروح شيطانية، خبيثة، لم تؤثر بي ظنونهم، لقد بذلت جهداً لأجعلهم يؤمنون بتلك الظنون. ما كنت لأقبل قط أن يكون ما يجعلني مخلداً في أذهانهم هو أنني الأبكم الوحيد في القرية، ولم أسمح لهم بأن يشككوا بحقيقة وجودي لأن لا صوت لي يثبت نوع الوجود الذي يؤمنون به، إنهم مجتمع محدود الإدراك، إذ لا مكان للأبكم بينهم لأن أذانهم لا تسمع صوته ولا للأصم لأنه لا يسمع أصواتهم ولا للأعمى لأنه لا يراهم، ماذا إذاً؟ هل كنت لأقبل أن أبقى على هامش الوجود لديهم؟ كلا. وألف كلا. استبدلت الأقوال بالأفعال، وبأفعال شديدة التطرف حتى أترك بصمة قوية لا تُمحى من أذهانهم. أشجار القرية المسنة التي طعنت جذوعها بالمسامير الصدئة تشهد لي، قيعان الوديان الموحلة والمدرجات التي تلاشت خضرتها لأني ذرأت الملح

والسموم في تربتها، الصباحات التي لاحقت فيها الراعيات عبر الجبال لأحصل على متعة مضايقتهن ببضع كلمات ترتجف لها دواخلهن، ولمسات مسروقة تتشنج معها أبدانهن، ثم لا يجرؤن على الشكاية بي، فالأجساد التي تلوثت بالإنتهاك وتحمل وصمة العار أجسادهن وليست جسدي، والمساءات التي احتجزت فيها الصبيان الصغار في (الديام) المتطرفة لأجرب عليهم بعض الممارسات التي تؤكد وجودي الذي ينكرونه، الوجود الذي يترك أثراً على جسد حي يحمله معه أينما ذهب وعلى روح صغيرة يكبر معها كلما كبرت" لا تعملش اكه، يوجع يوجع" "ششتكي بك لأبي" " الله يلعنك يا ابن الكلب" "قبح الله صورتك يا لوطي" كلماتهم الخائفة، الموجوعة، الغاضبة، لعناتهم، شتائمهم، كلها كانت جزءا من شهادتهم بأني هناك، ولي وجود يؤذيهم، وجود لا ينسى فكيف ينسى الإنسان مهما مرت السنون من انتهك براءة طفولته وعذرية جسده. فصول السنة كلها كانت تدور ليشهد كل فصل منها بما سبق أن شهده سابقه، كل صيف فاجأت به (الواردات) وأنا أسبح عارياً في البركة التي يغرفن منها، كل خريف أفسدت فيه محاصيل المزراعين قبل أن يحصدوها، كل شتاء اشعلت فيه الأشجار الجافة فخلفت حرائق يهرعون بذعر لإيطفائها وكل ربيع أججت فيه نيران غضبهم بجيفة تلوث خزانات المياه التي يحتفظون فيها بمياه الأمطار لمواسم الجفاف " موسى الأعجم ليس معاقاً وليس عاجزاً موسى ليس هامشاً في هذا الحياة، إنه وجود قوي يترك بصمته في حياتكم"

كان صباح ثاني أيام عيد الأضحي، كنت في الثانية عشر من عمري وكنت مشبعاً بهاجس الثأر الذي نشأت عليه، كما كان لدي هوس خفي بأن أجعل أبي فخوراً بي، أن أزيح عن كاهله ثقل خزيه بي لأني أربطه بأناس أقل قدراً و(قبيلة). في ذلك الصباح ذهبت مع أخي محمد الذي يصغرني ببضعة أشهر، ويكبرني بعشرات السنوات الضوئية في عيني أبي _ ودائماً ما كنت أحاول تجاهل ذلك الفرق بيننا وأنا على يقين بأني أفضل منه ويوماً ما سيدرك أبي ذلك وكل أقاربي _ إلى سوق القرية مع بعض من أقاربنا وأبناء عمومتي لنشتري زجاجات المشروب

الغازي الذي يساعد على هضم الغداء الدسم الذي ينتظرنا وتخزينة اليوم من القات .

" أمي ما رضيتش أجي معكم" هكذا قال لنا محمد قبل أن نصعد في مؤخرة سيارة "الهيلوكس" التي ستقلنا. صحت به: أنت رجل وإلا مكلف، ليش تستأذن من خالتي، تشتي عيال عمي يضحكوا عليك؟ علينا؟ اطلع سكته" قال: أمي شتضربنا وشتوجل عليك عند أبي لو ما قدرلك" " اسكت اسكت منتش رجال، أنا ما اخفش من خالتي وأبي هو الي جاب لنا حق القات والكندة يعني عادي نروح، وبعدين يمكن نلقى عيال الطاهش هناك ونستقضى منهم ونأخذ ثأر عمي عبيد" هكذا قلت له بحمية جاهلية، وهكذا كان الإتفاق الخفي بيننا أنا وأبناء عمومتي ومن كان معنا على متن "الهيلوكس" من أبناء القرية و"الحواذق" وهو لقب عائلتنا من الجد الخامس الذي لقب بالحاذق كناية عن ذكائه وحسن تدبيره. تردد محمد أكثر فحسمت الأمر وأنا أشده من ذراعه ليصعد معنا قائلا "خليك رجال"!

كنت أعرف أن أمه تخشى عليه من المجيء معنا كي لا يصاب بأذى إذا التقينا بخصومنا آل طاهش وذلك هو ما حدث، التقينا بهم كما كنا نرجو ونتربص فأخذتنا كما أخذتهم طيشة الجهل، واشتبكنا بقتال مميت سقطتُ فيه غارقاً بدمي بعدما كسر أحدهم زجاجة المشروب الغازي وغرزها في حنجرتي. حينها فقط أدركت أشياء أخرى في هذا العالم غير هوس الثأر وشهوة الدماء والقتال، وهاجس إرضاء أبي وجعله فخوراً بي. وبينما أنا ملقىً على الأرض تدوسني الأقدام، أختنق بدمي وتتمسك كفيَّ بعنقي الذي لازالت قطعة الزجاج مغروزة فيه أدركت أن ذلك الصباح بارد جداً رغم اقتراب وقت الظهيرة وأنني لا أريد أن أموت فالقبر سيكون شديد البرودة ولن يترك لي أبي فيه لحفاً يدفئني، وشعرت بالجوع وعلمت أني لن أعوض عن وجبة الإفطار التي حرمتني منها زوجته تعسفاً وظلماً بوجبة الغداء والكثير من اللحم الذي لم نكن نتناوله إلا في المناسبات، وأيقنت أن ثوب العيد الأبيض الذي يشتريه لي كل عيد لرخص ثمنه لن يتغير ليصبح

طقم ملابس جميلة مثل التي تشتريها خالتي لمحمد كما كنت أواسي نفسي، وأن أبي الذي كان حاضراً حينما عاقبتني زوجته بعدم تناول الطعام ولم يمانع عقابها لم يكن يستحق أن أموت في معركته وثأره، وأني لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت...، ثم سمعت صوت بجاش ابن عمي يعقوب وهو يصرخ بحرقة "قتلوا موسى قتلوا موسى!" فازددت يقيناً بموتي السريع، وأزدادت حرقتي وغضبي وحزني، كما أزدادت كفّي تمسكّاً بعنقي المنحور، وأزداد القتال عنفاً ودمويّة، وسمعت صوت الرصاص، وشعرت بثقل جسد يسقط بالقرب مني، فلم استطع تحريك رأسي والنظر إليه. ولأني كنت ملتصقاً بالأرض شعرت بالسيارات القادمة من جهات مختلفة قبل أن اسمعها أو يدركها من حولي. كانت سيارات الشرطة وبعض المشايخ وأتباعهم، بل كانت سيارات كل من امتلك سيارة في المنطقة والمناطق المجاورة على بعد عدة كيلومترات. رغم ظل الموت الذي كان يلفني والجثث والأجساد المصابة التي تزاحمني، إلا أني رفضت أن أبقى ملتصقاً بالأرض. حاجتي للتنفس ورفضي للاستسلام والموت بلا جدوى وقيمة جعلاني انهض واقفاً وأجر خطواتي في كل اتجاه بحثاً عن نجاة! بحثاً عن هواء! " يا لطيف يا لطيف، الحقوه الحقوه"! تصارخ الناس والرجال وهم يروننني اتشبث بالحياة وبعنقي المطعون " بعدوا بعدوا أنا بسعفه بعدوا" صاح رجل مليح الوجه وهو يقترب مني "الكل يتراجع للوراء، محد يقرب، خلوهم هنا لما يجي مدير المديرية" صاح بهم أكثر من شرطي وهم يدفعون الناس بعيداً ويمنعونهم من اسعاف المصابين والجرحى، ويطلقون الرصاص في الهواء كتهديد لمنعهم " أصاه أصاه، مدير المديرية شكون جالس يتغداء ذلحين والعيال يتصفى دمهم ويموتوا" تصايح الناس باعتراض واندفع الرجل مليح الوجه نحوي ليمسك بي قبل أن اسقط على ركبتي فلم أعد أستطيع الصمود تهدل جفني وتهاوى وعيي كما استسلمت يدي وحررت عنقي، لكني للحظات شعرت بذلك الرجل يلف " غترته" بحذر حول الزجاج والجرح، ثم يحملني مندفعاً، وهو يصيح في

رجال الشرطة " شاشله للمستشفى عاد فيبه روح لازم نسعفه"

عندما استعدت وعيي وأنا في المستشفى لا أستطيع التنفس إلا من خلال قناع ملتصق بوجهي، والألم يعث بشراسة في جروحي، والكدمات والكسور تملأ جسدي، عرفت أني لم أمت، أني لازلت على قيد الحياة وأكثر من أي شيء أخر أدركته وآمنت به هو أني لن أفرط في الحياة التي عادت لي، لن أترك هذا الوجود يسلب مني، لن اتخلى عن رؤية الشمس وتنفس الهواء وتذوق ملذات الدنيا دون أن أوثر أحداً عليّ وعلى راحتي. أزدادت قناعتي تلك بعدما دخل علي أبي يقول بقهر كسره واحنى ظهره: محمد مات وأنت اللي بقيت لي، ليتك مت بداله والا ليتك مت معه على الأقل ما كنت بتبقى سواد وجهي طول عمري، أول شيء أخوالك تزوجوا من مزاينة، وقلت ما يضيرش أهم شيء دمك دم قبيلي نقي، وذلحين يسعفك مزين، ويتبرع لك بدمه، ويختلط دمك بدم مزين" وفي السنوات اللاحقة ظل يصبها مراراً وتكرارا في قلبي فينمو في داخلي الحقد عليه فهو من دفعنا لذلك الموت بتمسكه بالثأر وصراعه مع عائلة (الطاهش) بينما تضاعف كره خالتي وحقدها عليّ ولم تنفك تكرر " لو كان هو بدل محمد، لو كان هو الي مات، هو الي شل أبني معه هو الي وداء أخوه للموت" وبعد كل مصيبة فعلتها وفضيحة أتيت بها، يعيد أبي على مسمعي: لو كنت ما جيت على الدنيا، أنت عاري وغضب الله عليّ، لو كنت داري أن بنت قليلين الأصل حامل قبل ما تخرج من بيتي كنت سقطها ولا خليت أثر يربط اسمي بهذمك الناس الي ما بهمش ذرة قبيلة". ولم أكن قد أكملت العشرين من عمري حين قرر تزويجي واختارات لي زوجته طفلة في الثالثة عشر لتشبع شهوتي، كي أتوقف عن ممارستي الشاذة التي تشعرهم بالخزي وتجلب لهم العار، لكنه عار سرعان ما يزول لأني ذكر أتبول واقفاً. كانت بكماء مثلي، لكنها صماء أيضاً ولذلك سارع أهلها بتزويجها لي فمن أكثر من يليق بها وبي من بعضنا البعض ومن كان ليقبل بها غير أبكم مثلها و" هي هذه الي تناسبك، وبيرضوا بك أهلها، محد بيزوجك وأنت أعجم وعيال

أخوالك مزاينة وفوقها دم مزين مخلوط بدمك" هكذا قالها أبي، وهو يخبرني أنه خطب لي تلك المعاقة قريبة زوجته، فازداد حقدي وكرهي وغضبي.

كانت قبيحة منفرة ومع ذلك كانت وجبة شهية لشرهِ مثلي، فلم أُوفر الجهد والوقت لالتهامها بضراوة، بل لأفرغ فيها طوفان غضبي وتآكلي، ولم تأخذني الشفقة بها فلم يفعل أحد قبلي، وقد جيء بها بشكل خاص لأجل ما فعلته، ولتكون هي ساحة معاركي وفسحة حقدي ومترع شهوتي وجشعي، فلم يستطيعوا إلقاء اللوم علي حين انتهيت منها خلال أسبوعين وهي جثة ممزقة، بل بذلوا جهدهم في صمت لترقيعها، ولملموا أشلاءها في القماش الأبيض بعدما ازالوا بقايا الدم والمني العالق بجسدها ثم ألقوها في حفرة على عمق متر و أربعين سنتيمتر وهو مقياس طولها. حتى أهلها لم يلقوا عليّ عتاباً أو لوما، وكان حزنهم منافقا قليل الصبر فلم يلبث أن جف بعد بضع دموع وشهقات ذرفتها نساء عائلتها كجزء من مراسم الموت الذي رموها به، بل إن زغاريد فرحهن وهن يرمين بها إلى فراشي كانت أصدق من تلك الدموع.

بعدها ببضعة أيام عاد كل شيء كما كان، وأصبحت استمع لكثير من النكات والمزاح البذيء عن قوتي وفحولتي التي أكدها موت الفتاة بعد أسبوعين من زواجي بها، وآه أيضاً لم يعد لدي كلبة امتطيها كل ليلة حتى استفرغ كل جهدي، وعادت غريزتي تتكاثر فلم يسلم طفل أو فتاة من تحرشي وتلمسي الطريق إلى فرجه، لذلك ولأنه لا ضحية أخرى في قريتنا تقدم قرباناً لفحولتي _ وذلك ليس لأني سلبت حياة إحداهن لا سمح الله فذلك حقي الذكوري طبعا _ لأني موسى الأعجم الذي تزوج أخواله من (مزاينة) فلوثوا نسبهم ونسب كل من ينتمي إليهم بقرابة، ثم لأن دم مزين اختلط بدمي عندما تبرع لي بالدم بعدما اسعفني وأدخلني أفضل مستشفى في المدينة على نفقته، بل وعرض أن ينقلني للعلاج في الخارج كي استعيد صوتي، لولا أن (القبائل) تداركوا الأمر ودفعوا له ما انفقه من مال في علاجي

تجنبا لمزيد من الهوان الذي شعروا به لأن (مزين) تفضل على (قبيلي) بأنقاذ حياته وعلاجه؛ لكل تلك الأسباب لم يرغب أحد بمصاهرة أبي وتزويجي ابنته، فلم يعد لأبي حل سوى إرسالي إلى المدينة لأكمل دراسة الجامعة كما كنت أسعى، برغم أن ذلك لم يعنِ أنه تكفل بالإنفاق علي أثناء دراستي، بل هو فقط تغلب مرغماً على هاجس أن أفعل مثل قريب والدتي الذي سافر ليدرس في المدينة ثم عاد بزوجة من أصول غير معروفة، أو أن تجد خطاي الطريق إلى أمي " والله إن رحت لأمك وإلا لقيت حد من أهلها لأتبرأ منك وأنكر أنك أبني، وإلا لو إن رجعت لي بوحدة من حق المدينة لأقتلك واشرب من دمك، اسرح ادرس زيما تشا ودور لك شغل مثل باقي الشباب الكاملين الشغل يشتي له رجال شديد ما يحتاجش للهدره" بالطبع ما كنت لاخالف رغبته ولا لأقف أمام تهديده، وبكل حال لم تكن تلك الأم التي رمتني إليه بعد ولادتي تهمني ولو بمقدار ذرة هي أو أي أحد من أهلها، وما كنت لأغامر بفرصتي في الدراسة الجامعية التي هي الطريق نحو حلمي لأي سبب كان، لكن وبعد قرابة الأربع سنوات وبينما أوشك على التخرج، عرف أبي أنني أدرس اللغة الفرنسية، فثارت ثورته وجاء لسحبي وضربي كالحيوان أمام زملائي داخل الحرم الجامعي وهو يصرخ: تخدعنا يا ابن الق**ة، تحسب لو درست لغة الكفار شخلك تسافر بلادهم وتكفر مثلهم وتنسى أصلك وفصلك مثلما عمل صالح بن عمتي تقية" وللحق كان ذلك هو هدفي منذ البداية، أن أفعل مثلما فعل صالح ابن عمته تقية، وأهاجر هذه البلاد وأهجرها، وصالح هذا كان عاره وعار أهله الثاني من بعدي طبعا، لكن لشدة نفاقهم لم يصبح صالح وصمة عار وشخصاً يخجلون من ذكره إلا بعدما توقف عن إرسال المال لهم وقطع اتصاله بهم. " أعجم ويدرس لغة فرنسي هه هه هه، بيشتغل مترجم لسياح وإلا ملحق بالسفارة!!" هكذا سخر أهل القرية مني " إلا صدقه أبوه، شكله يشتي يسافر بعد صالح ويشرب الخمر ويزني ويكفر وينسى أصله وفصله" وهكذا استمروا بالحكم علي، "كان أبوه خائف ليفعل سعما فعل بن خال أمه ويسرح بعد بنات المدينة وما يدري إلا وقد ورطه بوحدة مزينة وإلا

خادمة، طلع يشتي يفعل مثلما فعل صالح ويسرح بلاد الكفار، يحسب أنها سهلة السرحة عندهم، ما يخلوش أحد يدخل بلادهم إلا لو هو كافر مثلهم" " أصلا ما يشتي بالدراسة؟! قهو إلا أعجم لا شحصل شغل ولا وظيفة، يجلس ثمة يخدم أبوه الي مامعش غيره" وهكذا استمروا بالتحكم بي وتحريض والدي على تقييدي وأستعبادي. كنت قد قطعت شوطاً كبيراً لأتحرر منهم، وكنت قد بنيت نصف حلمي بعيداً عنهم بالفعل، لكنهم أمسكوا بي وقيدوني، فكيف كان بإمكاني أن أقنع أبي بعودتي لدراستي وأنا بدون صوت؟ وهل لو كان لي صوت لاستمع إليّ وتفهم رغبتي؟ بالطبع لا، ولم أكن استطيع ترك القرية والهروب من سلطته وبطشه، فلم يكن قد حان الوقت بعد لأتركه إلى غير رجعة، ومع كل اسبوع يمر دون عودتي لمقعد الكلية كان يتأجج غضبي، وقبل موعد الاختبارات النهائية ببضع أيام عثرت زوجته على مجموعة من الرسائل التي وصلتني بشكل سري مع سائق الصالون الذي ينقل المسافرين من وإلى قريتنا، كانت الرسائل بالفرنسية ولم يكن أحد مطلقا ليعرف فحواها، لكن الورق الملون ورائحة العطر الأنثوية لم تترك مجال لشك بأنها من فتاة، كنت راجعاً إلى البيت بعد الظهيرة على غير عادتي بعدما انفض اجتماعنا أنا ورفاقي (الصيّع) من شباب القرية في (ديمتنا) فسمعتها تحرض أبي قائلة: مش قلتلك ابنك طرطور، ابصر ابصر هذي الرسائل وشم ريحتها وبتعرف أنها من وحدة من ق** المدينة، أني قلت لك أنه ابن أختي شافه مع وحدة هناك، وأنه يصيع ويتصعلك وما درس لغة الكفار إلا علشان يكون مثلهم" فعرفت باكتشف أمر الرسائل قبل أن يوجعني أبي به ويعاقبني، كما عرفت أيضاً من الذي اخبره عن دراستي في قسم اللغة الفرنسية، فأنا كنت قد تكتمت على الأمر وأحطته بسرية تامة وكذبت على كل من سألني بأني أدرس في كلية التمريض وسأكون ممرض لا يضيره إن كان أعجم، انسحبت بهدوء دون أن يشعروا بي بعدما سمعته، وكنت قد أعددت ثلاث خطط لاستطيع السفر وألتحق بالاختبارات وأحصل على شهادتي، لكن ثلاثتها لم تعد ذات فائدة بعدما عثرت تلك الحية على الرسائل وكل السموم

التي بثتها في أذني أبي، كما لم تكن أي من تلك الخطط تضمن لي العودة إلى البيت مرة أخرى لو لحقني فشل أو تأخر وصولي لما أسعى إليه، بل ولم يكن لدي شك أن يلحق بي أبي إلى هناك ويتسبب لي بمذلة أخرى في الحرم الجامعي وربما طردي من لجنة الاختبارات، بل ولن يتورّع عن سجني. وبدون نية مسبقة قادتني خطأي إلى سفح الجبل ووجدت نفسي حيث ترعى أختي الصغيرة مريم _ ذات السبع سنوات حينها_ أغنامنا، كانت واحدة من خططي أن أسمم الماشية ثم أدخل إلى المدينة لأجلب لها الدواء الذي سآخذ ثمنه وأختفي، كما كان يمكن أن أسمم الزرع، لكنها كانت خططاً فاشلة سأنتقم بها من أبي نعم، لكن لن تخدمني في غايتي وهي حضور الاختبارات والحصول على شهادتي، ثم رأيت مريم تجلس لوحدها فالفتيات كن يتجنبن الرعي معها منذ رجعت من المدينة، كانت شاردة الذهن في شيء ما ولم تنتبه لمجيئي، فوقفت على مقربة منها وأنا أفكر أنها الطفلة الوحيدة لأمها وقرة عين ابيها حتى ولو كان قاسياً معها بعض الشيء لكنها تظل مدللته وآخر من حصل عليه من الأبناء ولم تمت كما مات كل أشقائها عند ولادتهم، باستثناء محمد الذي قتل على يد عيال(الطاهش)" مسحور لك يا سعيد فاطمة سحرة لك علشان يموتوا كل عيالك بعدما طلقتها وشليت ابنها" هكذا تبرر زوجة أبي وفاة أبنائها، أن زوجته الأولى، أي: أمي، سحرت له بعدما طلقها وأخذني منها فور ولادتي " كان معاها من أثره وسحر له سحر هوائي" تقولها لكل من يسألها عن سبب وفاة أطفالها " حتى محمد الذي ولد قبل ما تسحر له، تسبب بقتله ابنها لما شله معه السوق وهو ناوي يسرح يتقاتل مع عيال الطاهش" تكمل بحرق وحقد عليّ وعلى أمي التي تعيش في المدينة حياة هنئية ولديها من الأولاد خمسة في أتم الصحة والعافية؛ فقررت وأنا أرقب مريم أنه إذا كانت أمي قد سحرت لموت كل أطفال أبي من زوجته الثانية كما تقول فيجب أن تموت مريم أيضاً، بل إن موتها هو العقاب الاستثنائي الذي كنت أدخره له كل هذه الأشهر وهو العقاب الذي تستحقه زوجته بعدما تسببت في تعطيل دراستي كل هذه السنوات، بينما

تحاول بكل حيلها أن تجعل أبي يوافق على إلتحاق مريم بالمدرسة، لكن عليّ أن أستفيد من هذا العقاب الذي أنويه، وأن تموت مريم بحسم لن يفيدني "يجب أن يكون موتا بطيء وعلى مراحل يجب أن أجعله عقاباً لهم وجائزة لي" قلتها في نفسي بعدما قررت ما سأفعله وعدت أدراجي حتى وصلت إلى (الديمة) التي نجتمع فيها أنا ورفاقي من شباب القرية العاطلين، كان هناك ضبعاً مقيداً كنا قد امسكنا به منذ أيام وخططنا لوضعه بعد تجويعه في قان دجاج أحد القرويين الذي أمسك بنا ونحن نسرق بيضه واشتكنا في مديرية الأمن فسجنا لمدة أسبوع، أخذت الضبع وعدت بحذر وترقب نحو مريم، كانت لاتزال مع الأغنام في ذلك السفح، فاقتربت منها دون أن تنتبه لي ثم اطلقت الضبع الجائع عليها وعلى الأغنام، تفرقت الأغنام كلٌ في اتجاه وركضت مريم تحاول ارجاعها، ثم رأت الضبع يفتك بنعجة صغيرة فامسكت بالحجار ورمتها عليه، عندها قفز الثعلب الذي غرته ضآلة جسدها وهاجمها، لكنها لم تكن خصماً سهلا، فبقيت للحظات أراقب صراعها معه وأنا أفكر أنني عشت مع الموت صراعاً مماثل ولازلت حتى اليوم أتعرض للوم والتقريع لأني انتصرت عليه، سمعت صراخها المستنجد ورأيت الضبع وهو ينهش ذراعها، وبإصرار لبثت انتظر أذى أكبر يصيبها قبل أن أتدخل، ثم رأيته يطعن كتفها وصدرها بمخالبه وبقيت ساكنا، أقول لنفسي" عليها أن تصمد كما صمدت أنا" وعندما سمعت أصوات قادمة من أسفل السفح ومن الجبال المقابلة، قررت أنه حان دوري لأتحرك، لكن في تلك اللحظة تدحرجت مريم مع الضبع نحو حافة السفح المنحدرة باتجاه (الضاحة) فهرعت بأقصى سرعتي للحاق بها، وأطلقت الهواء من صدري في محاولة لصراخ باسمها واكتشفت لحظتها أني في الحقيقة لا أريدها أن تموت، خطتي تقتضي أن لا تموت، وأنا لا أريدها أن تفعل، ستكون الدنيا أكثر سواداً وبشاعة بدون شفقتها علي، ومواساتها لي ببضع حبات من العنب تخفيها عن والدتها عندما يحضرها أبي وتتسلل بها نحوي، أو بقطع من أقراص العسل التي يمنحها لها جدها ال(نحال) فتوفرها لي، ولم أعلم قط كيف أو متى شعرت الصغيرة بذلك الحب والولاء لي.

امسكت بها قبل أن تتدحرج أكثر لكني انزلقت معها بضعة أمتار دون أن استطيع منع ذلك، وكان الضبع هو الأكثر ثباتا بيننا بغرز مخالبه في الأرض العشبية، لكنني بغضب مكتوم لم استطع الصراخ به، أمسكت به من جذعه والقيته نحو الهاوية ليسبقنا إليها إن كان لابد من سقوطنا، تمسكت بالأعشاب والشجيرات الصغيرة وحاولت الصمود حتى تصلنا النجدة، ولكن عندما سمعت أصوات الأشخاص الذين هرعوا على صوت مريم تقترب لم يكن لدي صوت ليدلهم على مكاننا وكانت مريم قد فقدت الوعي ودماؤها تنزلق على ذراعي المحيطة بوسطها وتتقطر نحو الفراغ في الأسفل، كان عليهم أن يقتربوا أكثر ليروننا فالحافة المنزلقة للمنحدر لا تجعلنا بمرمى أبصارهم، وأوصلتهم الأعشاب الممزقة والتربة المنزلقة إلينا، بعدها نقلت مريم كما باقي خطتي إلى مستشفى المدينة ونقلت معها لأني ادعيت إصابة شديدة مثلها، ثم ذهبت لأحضر الاختبارات بعلم أبي الذي جعلته حادثة مريم وانقاذي لها يغض الطرف عن ذلك وعن الرسائل التي وشت له عنها خالتي.

انهيت اختبارات المستوى الجامعي الرابع وحصلت على شهادة الليسانس في الأدب الفرنسي وكنت الأول على الدفعة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، فظننت أني سأحصل على مقعد معيد في الجامعة أو وظيفة في هيئة التدريس، كأقل تقدير، أو كما كنت استحق واطمح منحة على حساب الدولة لدراسة الماجستير في الجامعة الفرنسية (السوربون)، لكن أياً من ذلك لم يحدث، المنحة حصلت عليها زميلتي التي تشاركت معها في مشروع التخرج والتي كنت أعلم أنها تستغلني بتصرفاتها المغوية لمساعدتها في الحصول على الملخصات واتمام المشروع، لكني كنت أثق أنني سأحصل على المنحة لأني أعلى درجات وأكثر استحقاقاً وذكاءً منها، لولا أنها استفادت من مركز والدها في إدارة المحافظة وعلاقتها الغرامية مع رئيس القسم. ومنصب المعيد في هيئة التدريس حصل عليه الطالب الثالث على الدفعة بداعي أني لن أقوم بمهام وظيفتي على أكمل وجه بسبب إعاقتي.

وهكذا أجهزت جميع فئات هذا المجتمع السرطاني على الإنسان الذي بداخلي، وعدت إلى القرية لأسلط على أهلها شياطيني كما تسلطوا علي بالاستهزاء والسخرية والتحقير. وكان يمكن أن استسلم لشيطان الانتقام والأذى لوقت طويل، لولا أني كنت أريد وجوداً أوسع مما كانت ولازالت تلك القرية والبلاد ككل تمنحه لي، ولم يبق لي الكثير من الخيارات، فسعيت بسرية شديدة للاتصال مع قريب أبي المقيم في فرنسا لأقنعه أن يسهل انتقالي إليها، وبرغم أنه وافق على استقدامي إليه وكان مستعداً لتكفل بمصاريف سفري لكنه ليس صاحب الفضل الأول في وصولي إليها، فقد تمكنت من ذلك لأن التخلص مني بات حاجة ملحة لأهل القرية ولأقاربي ولأبي الذي أوشك على قتلي بعدما اتهمتني زوجته بأني حاولت اغتصاب مريم وكدت أفقدها عذريتها، ثم تسببت بإجهاض حملها الذي لم تكن تعرف عنه وهي تندفع لتتطاول علي بيدها عندما وجدتني مع ابنتها البريئة في مخزن الدار، وتدخل أعمامي لمنع والدي من ارتكاب جريمة يسجن عليها، وبعد نقاش وجدال لم استطع التدخل فيه للدفاع عن نفسي، اقتنع والدي بنفي إلى أي جحيم يليق بي، وتكفل أبناء عمي يعقوب وعمي منصور بجمع مبلغ من المال لشراء تأشيرة سفر للعمل في المملكة العربية السعودية، وانتقلت إلى العاصمة لأكمل معاملة السفر وابتعد عن والدي وغضبه، فاستغليت تواجدي هناك والمعاملات التي تم انجازها لغرض السفر إلى السعودية في التوجه إلى السفارة الفرنسية وتقديم طلب لجوء إنساني، في الحقيقة لم تكن أسبابي مقنعة تماماً كما لم تكن لدي أدلة قوية على صحة تلك الأسباب، تعرضت لمحاولة قتل بسبب الثأر! تعرضت للاضطهاد بسبب الإعاقة! تعرضت للإهانة والضرب بسبب حرية الفكر ورغبتي بدراسة اللغة الفرنسية! تعرضت للتهديد بالقتل من قبل والدي! كلها أسباب مموهة وكذلك الأدلة التي قدمتها لم تكن قوية، لكنها جميعاً مكنتني من الوصول إلى فرنسا كلاجئ إنساني تعرض للاضطهاد والتهديد في بلاده، بعدها بعام نشرت أول رواياتي الناجحة ثم التحقت بالماجستير في (السوربون) كما أردت، واكملت الدكتوراه

بعدها واستمرت نجاحاتي ككاتب وناشط حقوقي يدافع عن حقوق الإنسان والمرأة في المجتمع اليمني، أصبح لي أهمية وثروة وحصانة بعدما حصلت على الجنسية الفرنسية. هكذا انتصرت بكل معاركي، ووصلت إلى بلاد الحب والحرية، والوجود شديد التركيز والكثافة، فوجدت كل شيء حلمت به وأردته، كل الرغبات الأقل سخفاً من أن أكون بطلاً خارقاً يقاتل كثور معصوب العينين في معارك ثأر قديم الجذور تسقيه خرافات وتقاليد عفنة ليزهر كراهية وعداوة يتغذى عليها الجهلة من الناس كما تتغذى الكلاب الضآلة من مكب النفايات؛ فأفرغت فيها غضب السنوات الحاقدة الخرساء التي قُيدت بها، وحينها اكتشفت أن تلك النعجة البكماء التي ماتت على سريري لم تكن تستحق كل ذلك الجهد الذي خسرته معها، آه ولم تكن تستحق الموت أيضاً، لكانت معي الآن في هذا الوجود الصاخب، تصرخ بشكل مختلف عما كانت تفعله طول سنواتها الثلاث عشر، وفي فراشي في الأربع عشر ليلة التي قضتها فيه، لكانت وجدت صوتها مختلفاً هنا، لكانت مارست وجودها كما لم تكن لتتخيله هنا، لكنها استسلمت لقدر البكم فماتت في صمت ودون صخب كما عاشت، أما أنا فرفضت أن أعيش على هامش الوجود الأصم وابتدعت صوتي الخاص ولغتي الخاصة لأرسخ في ذاكرة هذا العالم وجودي.

تسنيم المروني

المشهد الأخير

قصة قصيرة

بقلم **حنين الاغواني**

المشهد الأخير ، الجندي المجهول، أخر الرصاص.

ثلاثة رصاصٍ في بندقيته.

يتسرب الموت خلالها، و تنتهي كل الحكايا.

لن تكتب القصة بعدها ثانية، واسمه لن يدرج كمجرم او بطل هنا لا أحد يستطيع القراءة ، عوضاً عن قول " لا" . لا مكان للشيطان في قصيدة أمل دنقل، لا مكان لسبارتكوس .

ها انا أموت غاضباً، خائفاً، وحيداً، كثورة لم تكتمل.

متمسكاً بسبيل خلوده الوحيد، هكذا نحت على أحدى الصخور القريبة منه. صخرة كانت تراقبه منذ بدأت المعركة . في لحظة ما أصبح الغبار أسود في رئتيه، وبقية الصخور التي يختبئ خلفها توابيت تجثم على صدره. شعر وكأنّ ما بينه وبين الموت ثلاثُ خطوات هي الأسرع من رصاصه. حتى القائد لم تفلح تعازيه حينما كان يحاول طمأنتهم .

هم الأقوى، ولكننا نمتلك النوع الألماني، ذخيرتنا هي الأفضل على الإطلاق.

شعر لحظة نفاذ ذخيرته بأن قيمته تساوي رصاصة.

أنَّ وجوده مرهون ببندقية مدججة رصاصها لا ينتهي .

المعركة غير متكافئة، وربما حسمت منذ زمن ،فكل دقيقة تسقط أمامه ذراع .لم ينسَ أبداً تلك الأصابع التي راها ترتفع نحو السماء، تلفظ اخر أمانيها لتظفر بمكان أنعم .

تلك أصابع أصدقائه"، التي تذكَر كيف كانت تضغط على الزناد بسرعة ، كي تَسرق لحياتهم بضع ساعات ، قبل أن تسقط خائبة. لم يعد هنالك معنى لبقائهم الآن، ففي كل مرة كان يخبر أصدقائه بصوته، بأنهم سيحسمون المعركة لصالحهم .

سيكون لنا وجود فعلي، سنتنفس كما يتنفس البشر، يا إلهي كيف دفع بنا النظام لهوّة النسيان ؟ حيث لا ندري بعدها من نحن؟ ومن نكون؟ و لا نهتم بما سيأتي ، حقاً لقد سدّت أنفس هذا الشعب كما عصبت أعينهم ، وبجدار اليأس ارتطم رأسهم .

لعلّهم يلوذون بيوم هادئ يخلو من خسائر أو زجّ نحو المجهول. غدا كل واحد منهم يسرق ولاءه.

خيّم الليل ورائحة الموت تتسرب من أعشاش الجبل، كما يتسرب صوت "الصُرِيرة" إلى آذنيه الآن. لم يعرها سابقاً انتباهاً كما الآن . صحيح ان لها صوتاً لا يطاق سماعه، كسر صمت الكون. في كل ثانية تصدر نغمة بإيقاع واحد. شعر لوهلة أنها تشرح حاله، تصف

خوفه المتسرب للمدى. تتساءل كيف يموت من هو ميت حقاً.

نظر حوله وإذ بصديقه في متراسه متعب من الوقوف على الأطلال كإله أو شيطان. أحس برغبة اشهار بندقيته الفارغة في وجه كائن من كان. المهم ألّا يشهد أحد على خساراته.

تأمله بعينٍ مفرغة، ثم أشاح ببصره نحو المجهول. لا يدري حقاً إن كان سيصعد إلى السماء، وهل هنالك سماء يمكنها أتساع كل هذه الأنفس الرثة كأرواح سكان مدينته. حينها ودّ لو يلعب دور المخلّص في القصة من غير معجزات، لا رسالة يكتبها ولا مواعظ يلقيها هنا وهناك. فقط مخلص من بينهم، له نفس ملامحهم وقسماتهم المرهقة، جاع كجوعهم .وسجن بسجنهم وتنفس هواءهم الملوّث .

فكّر مثلا برمي قنبلة نووية كتلك التي خسرت معها اليابان كل حيلها بالمقاومة. هو الآن يعرف جيداً كيف يكون موقف الخاسر في الرهان.

"راية بيضاء "ولكنه يرفض الأمر الأن. يرفضه بشكل قاطع رغم ما تصله من أنباء خسارتهم.

لقد انتهى "الضبّاط الأحرار"، وارتطمت أمالهم بالتخلص من هذا الاستبداد عرض الجدار . يعرفون متى ولد " الأمام يحيى " ولن يعرفوا متى سيموت أحمد.

هل سنموت هنا؟ هكذا سأله رفيقه وهو ينظر إليه بعينيه الغائرتين وصوته المرتعد الذي حاول الوقوف على قدميه. أجابه بصوته الصدى: الأمام لا يموت وجميعنا مرهونون بثلاث طلقات و"مترس ".

"الأمام" لن ينتهي هكذا أشبع فضول رفيقه.

فقد توعّد "الإمام أحمد " نجل " الأمام يحيى " كل من تورّط في الانقلاب. ها هو الشبل عاد ليثأر لأبيه بقبضة من نار . على كل من تورّط تسليم نفسه. عليهم الآن رفع الراية بيدٍ ورؤوسهم بيدهم الأخرى.

لقد وصلته الأنباء بأنهم علقوا أجساد الرفاق عراة على" باب الكبير" بعد أن لاقوا حتفهم نتيجة تعذيب ممنهج . تمتمت بصوت منخفض.

تُرى هل سأنتهي هنا بثلاث طلقات؟ تمضي الليلة ببطء ويتساءل هل سيشهد الغد، فقوات الأمام أحمد تنتشر في كل مكان.

الغد سيصنع المجد! هكذا أجابه قادته حينما سألهم ماذا عن الغد . ظن بأنه يمكنه العودة للديار إلى أحضان والديه، في عزلته الصغيرة ، أعلى أرتفاع في تعز، "صبر" قريته الصغيرة ، كما تسمى "بلاد مليون مشارع ومقاتل" .لم ينس ذلك
اليوم حين شهدت القرية صراخ والديه وهما يمنعان الحرس من أخذه. لم يكن ذا أسرة عريقة ولا ابن شيخ يمتلك أراضي الحَب والقِشر والبن، ولا مزارع القات. كان "رعوي" ابن "رعوي".

ورثت والدته بقرة بنية اللون عن والدتها. كانت تحبها أكثر من أي شيء أخر عداه هو .

أما عن والده فكان يعمل في أرض الشيخ محمد عبد الوالي. شيخ يمتلك ألف قصبة وعشرةٍ أبقار ومائة ماعز. يقال إن له نفوذاً مع الوزير وقيل إنه حضر "سَمرة" للإمام يحيى، وصافحه ومن يومها وهو يقول بأنه من "آل البيت". لم تكن تحدث الكثير من المشاكل في" عزلته " فالكل يعمل ويدفع لجنود الإمام ما عليه في الوقت المناسب. تغيّرت كل الموازين بصدور فرمان بدفع الخُمس، شمل ذلك عمّال الأراضي . وبعد تنهيدة مكتظة بالحسرة تابع والده: تراه ما الذي سيحدث فكل ثروتنا لا يمكنها الوصول للخُمُس.

مازالت ذكرى ذاك اليوم المشمس تحرق صدغه، فالشمس أيضاً أعلنت غضبها اعتراضاً لما يحدث:

أقسم أنني لا أمتلك شيئاً.

حسناً هذه البقرة، وهذه "الزَربة".

ولكن.. أين؟

أعتقد أنه سيتوجب عليك أيضاً أرسال زوجتك للمدينة كي تعمل خادمة للشريفات!

سقطت على خديه دمعة حين تذكر الطفل القابع هناك. طفل يجرّ من ساقه بعد أن شهد بقرته وداره تسلبان منه. هذا ما حدث تماما فقبل أن ينهي اعتراضه شعر بجلده وهو يحتك بالأرض. ربما أول مرة يسمع صوته:

أتحداكم!

هكذا وجد نفسه بعمر العاشرة في مكان مظلم . فقد ساقوه نحو القلعة إلى ثاني أعلى ارتفاع في تعز.

قلعة القاهرة، السجن الأوحش المليء بالبشاعة والتعذيب. ما إن يحكم عليك بالذهاب إلى هناك لن ترى الشمس بعدها ثانية. تقع القلعة في مرتفع كبير يتوسط المدينة، مبنية بطراز معماري عسكري يقاوم الأملاح والاهتزازات الأرضية، لا يدري كم عمرها

ولا كم يصل طولها ولكنه يقسم بأنه أعلى مكان يمكن أن يصله المرء. إنها الصورة المثلى للجحيم.

تواصل "الصُريرة" صريرها غير مكترثة بأنفاسه الملتهبة، ولا بجسده المرتعد. مرة أخرى فكر بالرصاصات. تساءل رفيقه وفي سؤاله حس المغامرة:

كم نحتاج للرصاص كي ننتهي منهم؟

كم نحتاج للتخلص منهم؟

كرّر سؤاله بتعجب.

إن جذورهم ممتدة حتى خلايانا، صحيح أنهم أسرة واحدة تمسك زمام كل شيء، تضيق على رقابنا منذ زمن. إن دفنهم لن يخلق من طينهم سوى أصنامًا نعبدها في الغد.

سار بخياله نحو الغد، نحو ولده الذي لم يفكر بإنجابه. فمنذ نذر نفسه للحرية لم يفكر بالعودة للديار حتى. صحيح أنه لا يخشى أن يقبضوا عليه ولكنه لم يفكّر بالأمر، فهو يرفض أن يعود عبداً ، إما أن يعود حراً أو يموت ويتعفن جسده كما سيحدث معه في الغد. تمر الساعات ببطء كأنّها تعلن عن رفضها المعلن لما سيحدث في الغد.

غادر الفجر دوريته ولاحت خيوط الشمس كمراسم وداعهم الأخير. نظر لرفيقه المترقب بجانبه، والذي لا يعرف اسمه أبداً، ولا من أين هو. لم يكترث للأمر من قبل. شعر الآن برغبة حادة في مقاطعة صمته:

من أين أنت؟

من بلاد الواق واق.

نظرا لبعضهما فتبسما ابتسامة متكاسلة، دافئة بعض الشيء. مازال رفيقه متبعاً لوصايا حركة الضباط السرية، فالخونة منتشرون في كل مكان.

قطعهم صوت أقدام مهرولة باتجاههم:

إنهم هنا! لقد أتوا لجرّ أعناقنا. قال صديقه بصوت يرتعد.

لاحت على شفتيه إبتسامة. برزت على أثرها فذاحة القات. ودّ حقاً لو يعود للديار الآن. عبرته أغنية قديمة ردّدها بصوته :

"مريض نحن ليس لنا طبيبُ

وعشاقُ ليس لنا حبيبُ ".

ثم تحرك باتجاههم، وإذ به فجأة أطلق إحدى الرصاصات في الهواء والثانية صوّبها نحو رفيقه، والأخيرة فجّر بها رأسه المائل للحياة، الباحث عن الحرية.

****

استدراك:

* تعاقب على حكم شمال اليمن منذ استقلاله عن تركيا 1918 عدد من الائمة المنتمين لبيت حميد الدين ، اخد بيوت السادة . يحيى حميد الدين (1904_1948) الذي بويع من سكان شمال الشمال 1904 ولقب بالمتوكل وأسس بعد خروج الاتراك من اليمن ماعرف بالمملكة المتوكلية . اعتيل الأمام 1948 في انقلاب مدعوم من الاخوان المسلمين في مصر على يد الضباط الأحرار ، فشل الانقللب حيث تمكن نجله الأمام أحمد حميد الدين من الزحف باتجاه صنعاء ، اعتقل خلالها منفذي الانقلاب واعدام الكثير منهم واستمر في الحكم حتى وفاته 1961 ، استخدك سياسة والده في البطش والعزل المستمر والظلم ، من ثم انتقلت السلطة الى نجله محمد البدر والذي لم يحكم سوا اسبوعين فقط .

*الزربة: أرض يسكنها البقر والحيوانات

*فذاحة القات : هي بداية أو لنقول أول ورقتين عند مضغ القات

*قلعة القاهرة: معلم تاريخ في مدينة تعز وكان يستخدم الإمام قديماً لسجن المتمردين .

*تعز " مدينة يمنية بالتحديد مدينتي التي اقطن بها .

*باب الكبير " معلم تاريخ ، باب يسور المدينة .

*"الخُمس" نسبة كان يأخذه الإمام عن السكن بحجة دينية واستبداية

*"مترس" ما يحمي المقاتل من الرصاص ، درع او كيس مملوء بالرمال